التراث الحكائيّ وقصص الأطفال المعاصرة
كتاب (أخبار الأذكياء) أنموذجًا

د. أحمد صوّان(*)

شكّل التراث مادّة خصبة لأمم الأرض شرقًا وغربًا[1]، فراحت تنهل منه عندما توجّهت في الكتابة إلى أطفالها، وفي التراث العربي حكايات كثيرة جدًّا تُمتِع وتُفيد، وتحتوي على مضامين قيِّمة وشائقة، إذ نجد فيه حكايات عن الأذكياء والحمقى

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

(١) تعدّدت تعريفات التراث ودلالاته وأهميته، وممن وقف عند هذا المصطلح الدكتور محمد عابد الجابري، فرأى أنّ التراث يشير إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بين العرب؛ لتجعل منهم خلفًا لسلف، وهو - في الوعي العربي المعاصر - عنوان على حضور الأب في الابن، وحضور السلف في الخلف، وحضور الماضي في الحاضر، إنه المضمون الحي في النفوس، الحاضر في الوعي. ينظر: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٤. وقد فصّل الدكتور محمد حسن عبد الله القول في أهمية التراث وأثره في الحاضر والمستقبل، فأشار إلى أنّ الاهتمام بالتراث والعناية به هو اهتمام بالشخصية التاريخية للأمة العربية، وتأكيد لتميّزها للوقوف على إيجابياتها والدعوة إليها، وتعديل لمسارها فيما قصّرت فيه، وهذا يعني أنّ وضوح الماضي هو في ذاته وضوح الحاضر والآتي، وأن تغذية الجذور هي الطريق إلى إنضاج الثمار. ينظر: التراث في رؤية عصرية: د.محمد حسن عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ص٢٥.

والبخلاء، وعن جُحا وأشعب وأضرابهما في كتب متنوعة في أبوابها؛ ككتب التاريخ والسِّيَرِ والتفسير والأدب والحيوان وغيرها، وثمة كتب تناولت قصصًا وأخبارًا مخصّصة، ككتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي، وكتاب البخلاء للجاحظ.

إنّ توجّه كُتّاب قصص الأطفال خاصة، وأدباء الأطفال عامة نحو التراث له غايات نبيلة، وفوائد جمّة، تتمثّل في شدّ الطفل إلى تراثه، وإمتاعه، وتقديم نماذج ناجحة ليحاكيها، وإكسابه خبرة، والاهتمام بتراث الأمة ليس بدعًا لا نظير له، إذ السُّنّة المطّردة أنّ أمم الأرض تهتم بتراثها؛ لأنه ينبوع لا ينضب للفكر.

وفي تراثنا كثير ممّا يصلح للأطفال، وكثير من هذا الصالح من التراث في حاجة إلى تغيير وتعديل؛ ليكون أكثر ملاءمة، فالمراد إذن اختيار حكايات مناسبة للأطفال أوّلًا، ثمّ إعمال مشرط الأديب الخبير فيها ثانيًا، وبذلك تصير مناسبة للأطفال عامّة، أو لمرحلة عمرية محدّدة، وموافقة لأهداف قصة الطفل التي تنقل إليه خبرة وحكمة بأسلوب جاذب، وتعرض نماذج ومواقف يتعلم منها كيف يُحسن التصرف، وكيف ينجح، وأنّ الشر عاقبته وخيمة، وغير ذلك، وهذا متوفر في قصص تراثية كثيرة تصلح أن تقدّم للأطفال(٢).

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيل ينظر: جماليات القصة الحكائية للأطفال في سورية: محمد قرانيا، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩، ص٩ وما بعدها. تقول د. نبيلة إبراهيم: «والواقع أنه ينبغي أن يُقدّم للطفل في كلّ مرحلة قدر كبير من تراثه، بل إنه ينبغي أن يكون هذا التراث هو المنبع الأساسي الذي يستقي منه نماذج البطولة»، ينظر: البطل والبطولة في قصص الأطفال: د. نبيلة إبراهيم، بحث ضمن الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٣بعنوان: (كتب الأطفال في الدول العربية والنامية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٣.

ولايقف الأمر عند كثرة الحكايات ووفرتها في تراثنا، ولا عند موضوعها الشائق فحسب[٣]، بل يُنظر إليها من جوانب عدّة أُخرى، لتُحَقّق إضافة جديدة في مشاعر الطفل ورغباته، ولتأخذ بيده إلى عوالم جديدة مدهشة ومفيدة، ومن هنا كان من المناسب البحث في التراث عن حكايات مثيرة تشدّ الطفل وتُعالج قضايا إنسانية عميقة ذات أسلوب فنّي، وتكون ناجحة في تناولها الشخصيّات، وتتحرّك في زمان ومكان مُتّفقين مع سائر عناصرها، تروم انسجامًا لا تفكُّكًا، وتُقرّب أحداثًا وتُبعد أخرى بمهارة وعمق.

ومن ينظر في القصة العربية الطفلية يجد أنها سعت إلى الإفادة من كثير ممّا ورد في تراثنا الحكائيّ[٤]، وكان لقصة الطفل في سورية نصيب من هذا التراث الحكائي[٥]، ذلك أنه يمكننا الوقوف على نماذج متعدّدة اختلفت في الإفادة من هذا الموروث الحكائي الثرّ، ويؤكّد هذا أنّ هذا المنجم الحكائيّ سيبقى فاعلًا في

(٣) جُحا في أدب الأطفال، قيم تربوية غائبة: محمد بسام ملص، مجلة الفيصل، الرياض، ع٢٢٩، ١٩٩٥، ص١٠١.

(٤) ينظر على سبيل التمثيل جهود عبد التواب يوسف، وقد تحدّث عن تجربته في التعامل مع التراث في الكتابة للطفل العربي في كتابه الطفل العربي والأدب الشعبي، ينظر: الطفل العربي والأدب الشعبي: عبد التواب يوسف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٤١ ومابعدها.

(٥) ينظر على سبيل التمثيل جهود الدكتور سمر روحي الفيصل، وقد تحدّث عن تجربته في تقديم التراث للأطفال في كتابه ثقافة الطفل العربي، ينظر: ثقافة الطفل العربي: د. سمر روحي الفيصل، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٤٥ ومابعدها.

الحاضر، نظرًا لنقاط التقاطع واللقاء الكثيرة بين التراث والواقع، ولاسيما أنّ القصة الطفلية بوصفها حاملة رسالة فكرية وتربوية تنشد التأثير في الطفل وإيصال مقولة محدّدة(٦).

بيد أنّ ما سبق لا يعني أنّ الاهتمام بهذا الموروث بلغ غايته، وأنّه نال الاهتمام الذي يستحقه؛ ففي التراث نصوص حكائية كثيرة لم يستفد منها الأطفال بعد، تصلح أن تكون مادّة أوّليّة لقصصهم المعاصرة، فتُصاغ بلغة مناسبة، وأساليب فنّيّة تُواكب العصر، بحسب ما يحتاج إليه كلّ نصّ منها من تغيير قليلٍ أو كثير(٧).

ومن هذه الحكايات التراثية ما ورد في كتاب «أخبار الأذكياء» لابن الجوزي، إذ حوى كثيرًا من تلك النصوص، فما كتاب أخبار الأذكياء؟

كتاب أخبار الأذكياء:

ألّف هذا الكتاب عَلَم من أعلام العرب، هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي، من علماء القرن السادس الهجري (٥١٠-٥٩٧هـ)،

(٦) تُعدّ القصة من أشدّ ألوان الأدب تأثيرًا في نفوس الأطفال، وكثير من القيم والمفاهيم تنتشر بوساطتها قبل أيّ وسيلة أخرى، وبها يتعلّمون وينمون. ينظر: الطفل وأدب الأطفال: د. هدى قناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٦٧.

(٧) وقف د. عبد الرؤوف أبو السعد على نماذج من التراث العربي ممّا يصلح أن يُقدّم إلى الأطفال؛ كقصص الأمثال والوصايا وأيام العرب وأبطالهم وكرمائهم وحكمائهم وقصص الحيوان وغير ذلك، ينظر: الطفل وعالمه الأدبي: د.عبد الرؤوف أبو السعد، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٤، ص١٠٣-١٢٧.

ومن مؤلفاته: زاد المسير، وتذكرة الأديب، والوجوه والنظائر، وصفة الصفوة، وصيد الخاطر، وأخبار الحمقى والمغفلين وغيرها(٨).

وكتاب أخبار الأذكياء يضمّ ثلاثة وثلاثين بابًا، أورد المؤلِّف في كل باب منها طائفة من الأقوال والأفعال التي تنمّ على ذكاء أصحابها، وتضمّن الكتاب نوادر وقصصًا وطرائف كثيرة، وقد عقد بابًا لفضل العقل وماهيته، وبابًا لمعنى الذهن والفهم والذكاء، وبابًا لعلامات الذكي، وأبوابًا نقل فيها من أخبار الأنبياء والصحابة والتابعين والقضاة والوزراء والحجّاب، والعُبَّاد والعلماء والشرطة واللصوص والعامة وغيرهم ما يدل على الفطنة والذكاء، وقد أفرد مساحة للحديث عن فُطَناء الصبيان، وما ذُكر عن الحيوان ممّا يشبه ذكاء الآدميين، وما يصلح من قصص هذا الكتاب ليكون مادّة للأطفال كثير جدًّا، وسأكتفي فيما يأتي بعرض نماذج منها:

النماذج:

١- قال الشعبي: أُخْبِرتُ أنّ رجلًا صاد قنبرةً، فلمّا صارت في يده قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحكِ وآكلك، قالت: ما أُشْفي من مرضٍ ولا أُشْبعُ

(٨) ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ١٥٤، ص٤٨٣، و: الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط .١، ١٩٩٢م، ج٣، ص٣١٦-٣١٧، و: أخبار الأذكياء: أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٠، مقدمة المحقّق، ص أ - ح.

من جوع، ولكن أعلمّكَ ثلاثَ خِصالٍ خيرٌ لكَ مِن أكلي، أمّا واحدة: أُعَلّمكَ وأنا في يدك، والثانية على الشجرة، والثالثة على الجبل، فقال: هاتِ الواحدة، قالت: لا تَلهفنَّ على ما فاتك، قال: فلما صارت على الشجرة قال لها: هاتِ الثانية، قالت له: لا تُصَدّقْ بما لا يكون أن يكون، فلمّا صارت على الجبل، قالت له: يا شقيُّ! لو ذبحتَني أخرجتَ من حوصلتي دُرَّتَيْنِ، في كلّ واحدة عشرون مِثقالًا، قال: فعضّ على شفتيه وتَلَهَّف، ثمّ قال لها: هاتِ الثالثة، قالت: أنتَ قد نسيتَ اثنتين، فكيف أحدِّثُك بالثالثة؟ ألم أقل لك لا تلهفنّ على ما فاتك، ولا تُصدّق بما لا يكون أن يكون؟ أنا وريشي ولحمي لا أكون عشرين مثقالًا، قال: وطارت فذهبت(٩).

٢- قالوا: وكان رجل في صحراء، فَعَرَض له الأسد، فهرب منه، فوقع في بئر، فوقع الأسد خلفه، فإذا في البئر دب، فقال له الأسد: منذ كم أنت ههنا؟ قال: منذ أيام، وقد قتلني الجوع، فقال الأسد: أنا وأنت نأكل هذا وقد شبعنا، فقال الدبّ: فإذا عاودنا الجوع فما نصنع؟ وإنّما الرأي أن نَحْلِف له أنّنا لا نؤذيه ليحتال لخلاصِنا وخلاصِه، فإنّه أقدرُ على الحيلة مِنّا، فحلفا له، فأخذ في التحيُّل، فَلاحَ له ضوءٌ، فَنَقَب، فخرج به إلى فضاء، فتخلَّص وخلَّصهما(١٠).

٣- حدثنا بعض إخواننا أنّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصُّص في حداثته ثم تاب فصار بزّازًا، قال: فانصرف ليلةً من دكانه وقد غَلَّقَهُ، فجاء لصٌّ محتال متزيٍّ

(٩) أخبار الأذكياء، مصدر سابق، ص٢٥٣.

(١٠) السابق، ص٢٥٧.

بزيّ صاحب الدكان، في كُمِّه شمعة صغيرة ومفاتيح، فصاح بالحارس، فأعطاه الشَّمعة في الظلمة، وقال: أشعلها وجئني بها، فإنَّ لي الليلة في دُكاني شُغْلًا، فمضى الحارسُ يشعلُ الشمعة، وركَّب اللصّ المفاتيح على الأقفال، ففتحها ودخل الدُّكانَ، وجاء الحارسُ بالشمعة فأخذها من يده فجعلها بين يديه، وفتح سَفَطَ الحساب وأخرج ما فيه، وجعل ينظر في الدفاتر ويُرِي بيده أنه يحسبُ، والحارس يتردّد ويطالعه ولا يشكُّ في أنّه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللصُّ الحارسَ، وكلَّمه من بعيد، وقال: اطلب لي حَمّالًا، فجاء بحمّال، فحمل عليه أربع رزم مثمنة، وقفل الدكان وانصرف ومعه الحمّال، وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس جاء صاحبُ الدكان ليفتح دكانه، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين، فأنكر الرجلُ ما سمعه، وفتح دكانه فوجد سيلانَ الشمعة وحسابَه مطروحًا وفقْدَ الأربع رُزَم، فاستدعى الحارسَ، وقال له: من كان حمل الرُّزم معي من دكاني؟ قال: أما استدعيتَ منّي حمّالًا فجئتُك به؟ قال: بلى، ولكن كنتُ ناعسًا وأريد الحمّال فجئني به، فمضى الحارسُ فجاء بالحمّال، وأغلق الرجل الدكان، وأخذ الحمال معه ومضى، فقال له: إلى أين حملت الرزم معي البارحة؟ فإني كنت منتبذًا، قال: إلى المشرعة الفلانية، قال: اطرحني إليها، فطرحه، قال: من حملها معه؟ قال: فلانٌ الحمّال، فدعا به، فقال له: امْشِ بين يديّ، فمشى فأعطاه شيئًا واستدلَّه برفق إلى الموضع الذي حَمَل إليه الرُّزَم، فجاء به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشطِّ قريب من الصحراء فوجد الباب مُقفلًا، فاستوقف الحمّال وفشَّ القفل ودخل، فوجد الرزم بحالها، وإذا في البيت بَرَّكَان معلَّقٌ على حبل، فلفّ

الرزم فيه، ودعا بالحمال فحملها عليه وقصد المشرعة، فحين خرج من الغرفة استقبله اللصُّ فرآه وما معه فأَبلس، فاتبعه إلى الشطِّ، فجاء إلى المشرعة، ودعا الملاحَ ليعبر، فطلب الحمّال من يَحُطّ عنه، فجاء اللصّ فحطّ الكساءَ كأنه مجتازٌ متطوِّع، فأَدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، وجعل البَرَّكَان على كتفه، وقال له: يا أخي، أستودعك الله، قد ارتجعتَ رُزَمَكَ فدع كسائي، فضحك وقال: انزلْ، فلا خوف عليك، فنزل معه واستتابه ووهب له شيئًا وصرفه ولم يُسئ إليه(١١).

٤- حُدِّثْتُ أنّ بعضَ التُّجار قَدِم من خُراسان ليحُجّ، فتأهّب للحج، وبقي معه من ماله ألفُ دينار لا يحتاج إليها، فقال: إنْ حملتُها خاطرت بها، وإنْ أودعتُها خفتُ جَحْدَ المُودِع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرةَ خَرْوَع فحفر تحتَها ودفَنَها، ولم يَره أحدٌ، ثمّ خرج إلى الحجّ، وعاد فحفر المكان، فلم يجد شيئًا، فجعل يبكي ويَلْطُم، فإذا سُئل عن حاله قال: الأرضُ سَرَقتْ مالي! فلما كثُر ذلك منه قيل له: لو قصدتَ عَضُدَ الدولة، فإنّ له فطنة، فقال: أَوَ يعلم الغَيب؟ فقيل له: لا بأْس بقصده، فَقَصَدَه فأخبره بقصّته، فجمع الأطباء وقال: هل داويتم في هذه السنة أحدًا بِعُرُوق الخَرْوَع؟ فقال أحدُهم: أنا داويتُ فلانًا وهو من خَوَاصِّه، فقال: عليَّ به، فقال له: هل تداويتَ هذه السنة بِعُرُوق الخروع؟ قال: نعم، قال: من جاءك به؟ قال: فلانٌ الفَرَّاش، قال: عليَّ به، فلمّا جاء قال: من أين أخذتَ عُرُوق الخَرْوع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: اذهب بهذا معك فَأَرِهِ المكانَ الذي أخذت منه، فذهب معه صاحبُ المال إلى تلك الشجرة وقال: من هذه

(١١) السابق، ص٢٠٠ -٢٠١ .

الشجرة أخذتُ، فقال الرجل: ههنا - والله- تركتُ مالي، فرجع إلى عَضُد الدولة، فأخبره، فقال: للفرّاش: هَلُمَّ المالَ، فتلكّأ، فأوعده، فأحضر المالَ(١٢).

٥- قال محمد بن ناصر: قَدِم رجلٌ على بعض السَّلاطين وكان معه عاملُ أرمينية منصرفًا إلى منزله، فمرّ في طريقه بِمَقْبَرَةٍ، وإذا قبرٌ عليه قُبَّةٌ مبنية مكتوبٌ عليها: هذا قبرُ الكلب، فمن أَحبّ أن يعلم خبره، فليمضِ إلى قرية كذا وكذا، فإنّ فيها من يُخبره. فسأل الرجل عن القرية، فدلّوه عليها، فقصدها وسأل أهلها فدلُّوه على شيخ قد جاوز المئة فسأله، فقال: كان في هذه الناحية مَلِكٌ عظيمُ الشأن، وكان مشتهرًا بالنزهة والصيد والسفر، وكان له كلبٌ قد ربّاه لا يفارقه، فخرج يومًا إلى بعض مُنتزهاته، وقال لبعض غلمانه: قُل للطّباخ يُصلح لنا ثَرْدَة لبنٍ فقد اشتهيتُها، فأصلحوها، ومضى منتزهَهُ، فَوَجَّه الطّبّاخ، فجاء بِلبن وصنع له ثردة عظيمة، ونَسِيَ أن يُغَطّيَها بشيء، واشتغل بطبخ أشياءَ أُخر، فخرج من بعض شقوق الحيطان أفعى فَكَرَعَ في ذلك اللبن، ومَجَّ في الثَّرْدَة مِن سُمِّه والكلب رابض يرى ذلك كلَّه، ولو كان في الأفعى حيلةٌ لدفعها، وكان هناك جاريةٌ طِفلةٌ خرساءُ زَمِنَة قد رأت ما صنع الأفعى، ووافى الملك من الصّيد في آخر النهار، فقال: يا غلمان! أَوَّل ما تُقَدِّمون إليَّ الثردة، فلمّا وُضِعت بين يديه أومأتِ الخرساءُ إليه فلم يفهم ما تقول، ونبح الكلب وصاح، فلم يلتفت إليه، وَلَجَّ في الصِّياح فلم يَعلم مُراده، فَأُخِذ ورُمِيَ إليه بما كان يُرمى في كلّ يوم، فلم يقربْه، ولَجَّ في الصياح، فقال للغِلمان: نَحُّوه عنَّا فإنّ له قصة، ومدّ يده إلى اللّبن، فلمّا رآه الكلب يريد أن يأكل طَفَرَ إلى وسط المائدة، وأدخل فمه في الغَضَارة وكَرَعَ من اللبن

(١٢) السابق ص٥٥- ٥٦.

فسقط ميتًا، وتناثر لحمُه، وبقي الملك مُتَعجِّبًا منه ومِن فِعله، فأَوْمَأَت الخرساءُ إليهم ففهموا مُرادَها بما صنع الكلب، فقال الملك لنُدمائه وحاشيته: إنّ مَن فداني بنفسه لَحَقيقٌ بالمكافأة، وما يحملُه ويدفنُه غيري، فدفنه وبنى عليه قُبَّة، وكتب عليها ما قرأْتَ(١٣).

وهذه وقفة عند القصة الأخيرة:

عناصر القصة وصوغها:

أولًا: عناصر القصة:

أ ـ الشخصيات:

يقع على عاتق القارئ تجميعُ ملامح الشخصية وصفاتها المبثوثة في أثناء السرد(١٤)، وينطلق في ذلك مما يقوله النص من بدايته إلى نهايته، ليركّب هذه الشخصية مجدَّدًا؛ ولما كانت هذه الدراسة تتوجّه في هذه الحكاية وأمثالها إلى المتلقي الطفل، وهو متلقّ خاص من حيث لغته وإدراكه ونفسيته، لزم توخّي الحذر واستحضار خصوصيته حين التوجّه إليه بحكايات من التراث، ولاسيما أن تكون معالم الشخصية التي لها قيمة كبرى في مقولة الحكاية واضحة، ولها علاقة وثيقة بسائر عناصرها.

تعدّدت الشخصيات في هذه القصة، وتنوّعت؛ فكانت بشرية: كالرَّجل، والشيخ، والملك، والفتاة الخرساء، والأعوان، والطباخ. وحيوانية: كالأفعى

(١٣) السابق، ص٢٤٣– ٢٤٤.

(١٤) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣، ٢٠٠٠ ص ٥٠.

والكلب. وهذا التعدّد مؤذن بترشّحها لمرحلة الطفولة المتأخرة[١٥]، إذ إنّ هذا العدد يُعدّ كبيرًا في القصص الموجهة إلى المرحلتين السابقتين.

وقد رُسمت الشخصيات رسمًا واضحًا ومقنعًا؛ إذ لا خلاف بين صفاتها في القصة وما هو معروف عنها في الواقع وفي خبرة الطفل[١٦]، فصوّرت العجوز مصدرًا للأخبار والمعلومات، والملك غنيًّا يأمر وينهى ويذهب إلى الرحلات والصيد، والطفلة الخرساء تخفق حينًا في إفهام الآخرين بحركاتها وتصيب حينًا آخر، والأفعى

(١٥) تعددت تقسيمات مراحل الطفولة في العصر الحديث، ومنها:

١- الطور الواقعي المحدد بالبيئة، وهو بين (٣ - ٥) سنوات، يحاول فيه الطفل أن يكتشف البيئة المحيطة به، وخياله فيها إيهامي مرتبط بها، ويميل إلى الاعتقاد الوهمي بأنّ الجماد يتكلّم ويحسّ ويرى ويسمع، والحيوانات كذلك، وانتباه الطفل في هذه المرحلة قصير مداه.

٢- طور الخيال الحر، وهو بين (٦ - ٩) سنوات، يتوق الطفل فيه إلى تخيل شيء آخر وراء الظواهر الطبيعية الواقعية التي خبرها في بيئته، فيجنح إلى الخيال الحر الواسع الذي تظهر فيه الملائكة والجنيات والساحرات والعمالقة والأقزام، وانتباه الطفل في هذه المرحلة يطول عن سابقه.

٣- طور المغامرة والبطولة، وهو بين (٩ - ١٢) سنة، يبتعد الطفل فيه عن الأمور الخيالية إلى حدّ ما، ويُعنى بالحقيقة الواقعية، ويميل إلى قصص المغامرات والشجاعة والعنف والتعرض للهلاك، ويجب أن تكون القصة ذات دوافع خيّرة وشريفة وسامية، ولا يقتصر الأمر على تقديم بطولة الأشخاص الحقيقيين، كخالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي، بل تُقدّم القصص التي مزجت بين الحقيقة والخيال، كقصص عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي والسندباد البحري وغيرها. ينظر: أدب الأطفال: د.عبد الرزاق جعفر، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٧٩م، ص٤٩-٥١، و: الطفل وأدب الأطفال، مرجع سابق، ص١٥٠-١٦٣.

(١٦) تكون القصة معقولة ومحتملة الوقوع عندما تتصرّف شخصيّاتها كما تتصرف شبيهاتها إذا وضعت تحت تأثير الظروف نفسها. ينظر: أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه: هادي نعمان الهيتي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٨، ص١٤٣.

مخيفةً شريرةً قاتلة ترمز إلى الموت، والكلب حارسًا أمينًا يرمز إلى الوفاء والتضحية.

قدّمت هذه الحكاية الحَيَوان (الأفعى والكلب) وهو يقوم بأعماله الحقيقية في بيئته، وبذلك يتعلّم الطفل كثيرًا من طبائع الحيوانات وأعمالها التي لا يستغني عن معرفتها في حياته، ويلمّ من خلالها بفوائدها وخطورتها عليه(١٧).

وقد قُدّمت الشخصيات في سياق الحدث، وعرفها المتلقي من الخارج، ولم تُصوّر من الداخل على وجه العموم، وذلك يقرّبها من الحكاية أو المادة الأولية(١٨)، ولم يعترِ شخصيات القصة تغيّر في مواقفها، فبقيت على طابع واحد في سلوكها وتأثيرها فيما حولها، وكانت غير متناقضة في تصرّفاتها وأقوالها، وهذا يجعلها مسطّحة(١٩) واضحة غير معقّدة، ولذلك لن يجد الطفل مشقّة في فهمها(٢٠).

(١٧) الطفل وأدب الأطفال، مرجع سابق، ص١٩٦-١٩٧.

(١٨) في القصة وفنّيتها، مفاهيم وقراءات: د.عبد المجيد زراقط، مركز الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٠، ص ١٧٩.

(١٩) الشخصية المسطّحة شخصية ثابتة ولها بُعد واحد، ويمكن التنبّؤ بسلوكها بسهولة، ينظر: قاموس السرديات: جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٧٠، وثباتها ليس عيبًا فنيًّا، فمن المواقف ما يحتاج إلى ثبات الشخصية، ويجب أن تكون واضحة محددة مرسومة بدقة، تلتزم سلوكًا محددًا معروفًا بحيث لا تُنسى أبدًا، ينظر: النص الأدبي للأطفال: د. سعد أبو الرضا، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢٠) يشير خلدون الشمعة إلى أنّ الأطفال أخلاقيون بطبعهم، وهم ينظرون إلى الخير والشر من خلال اللونين الحاسمين: الأبيض والأسود، فليس هناك من رمادي غائم بينهما، ومن الصعوبة الكبيرة عليهم إدراك شخصية قصصية تحمل خصائص الطيبة والفساد في وقت واحد. ينظر: الجذور المعرفية والإبداعية لأدب الأطفال: خلدون الشمعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٩٥، ١٩٧٩، ص١٨.

ب ـ الزمان والمكان:

كانت الإشارات الزمنية في القصة قليلة كقوله: «فخرج يومًا»، وقوله: «في آخر النهار»، وقوله: «في كل يوم»، وقد راعى السارد سرد الأحداث كما حدثت؛ إذ غلب على سرد أحداثه نظام السرد التقليدي المُرتّب زمنيًّا[٢١] عمومًا، وهو أدعى لمتابعة المتلقّي الطفل، وأبعد عن تشتّت فكره.

أمّا الأمكنة التي كانت مسرحًا لأحداث القصة فواضحة مألوفة يعرفها الطفل، ويستطيع استنتاج تصوّر لها لا يعيقه عن متابعة السرد، فثمة منزل، ومقبرة، وقرية، ومتنزّه، فهي تُشكّل في مجملها فضاءً للحكي متواشجًا لصيقًا به.

ج ـ اللغة والأسلوب:

يستطيع الطفل أن يفهم لغة أعلى من لغته، وأسلوبًا أرقى من أسلوبه بقليل، ولعلّه من الأفضل إغناء لغته بإضافة عدد قليل من الألفاظ الجديدة في كل قصة يقرؤها، وبذلك ترقى لغته ويقوى أسلوبه[٢٢]، وفي هذه الحكاية المختارة السليمة في لغتها نرى أنّ عددًا غير قليل من ألفاظها أعلى من مستوى الطفل اللغوي؛ لأنها لم تُكتب له أصلًا، لذلك تحتاج إلى شرح وتوضيح لإزالة غموضها أو غرابتها، وذلك بشرحها في حاشية، أو بذكر معناها بين قوسين بعد ورودها مباشرة، ولعل الأفضل في هذه الحالة أن يستبدل بها كلمة مألوفة فتغدو مناسبة له، وبذلك نضمن عدم تشتّت فكره، من مثل: ثردة لبن، كرع، مجّ،

---

(٢١) يُعرّف الترتيب الزمني أنّه مجموعة العلاقات القائمة بين الترتيب المفترض لوقوع الأحداث في الواقع، وترتيب حدوثها في السرد، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص١٤٠.

(٢٢) أدب الأطفال: د. عبد الرزاق جعفر، مرجع سابق، ص ٥٩.

رابض، لجّ، طفر، الغضارة، حقيق، وأمثالها، ولا سيما أن تراكيب هذه الحكاية تراكيب سليمة متآلفة واضحة لا تعسر عليه، وذلك كلّه يوقظ حواسّ الطفل المتلقي ويثيره ويجذبه كي يندمج بالقصة بما توحيه صورها إليه، فينتفع بها.

ومن المناسب أيضًا تعديل بداية الحكاية:

«قال محمد بن ناصر: قدم رجل على بعض السلاطين، وكان معه عامل أرمينية منصرفًا إلى منزله، فمر في طريقه بمقبرة..»، لتصير– على سبيل المثال– على النحو الآتي:

«مرّ رجل مسافر في طريقه بمقبرة ...».

وهذا أدخل في القصة، ويجنّب الطفل غموضًا وتشتّتًا قد يحولان بينه وبين متابعة قراءته، وهذا المقترح حذفه لا شيء مرتبط به في داخل السرد، ويحسن أيضًا معاملة الأفعى معاملة المؤنث خلاف ما ورد في القصة؛ لأنه الشائع والأسهل للطفل، ولا سيما أنه وجه صحيح.

ثانيًا: صوغ القصة:

تصاغ القصة عمومًا في مراحل ثلاث: ١– مقدمة ٢– عقدة ٣– حلّ[٢٣]:

١– المقدمة:

وهي تمهيد قصير للأحداث، ومدخل يشترط فيه التشويق[٢٤] وجذب انتباه

(٢٣) السابق، ص٥٦–٥٧.

(٢٤) يقول الدكتور سمر روحي الفيصل: «إنّ حكاية الأطفال لا تكون جيّدة ما لم توفّر للطفل التشويق وإثارة الفضول القرائيّ، وليست هناك طرائق محددة لبثّ التشويق في الحكاية، إلا أنّ الصراع شيء ضروري لتوفير التشويق في الحكاية، تليه في الأهمية إحاطة الحوادث بشيء من الغموض، وبقدر من المفاجآت...». ثقافة الطفل العربي، مرجع سابق، ص١٣٦.

القارئ، وعدم الإسراف فيه، والقصة التي بين أيدينا حقّق التمهيد لها ما سبق؛ ففي بدايتها عرف المتلقي أنّ هناك قبرًا لكلب، وفوقه قبة عليها كتابة تدعو من أراد أن يعرف خبر هذا الكلب أن يذهب إلى قرية معينة، فثمّ الجواب، فالفضول والتشويق إلى معرفة قصة الكلب وسبب بناء قبة عليه قد تحقّقا لدى الرجل الذي مرّ بالقبر، ولدى المتلقي على السواء، وقد لجأ السارد إلى التلخيص(٢٥) خشية الإطالة، فبعد قراءة الرجل ما على القبة مباشرة سأل عن القرية، فدلّوه عليها فقصدها، وسأل أهلها، فدلوه على شيخ قد جاوز المئة فسأله فأجابه، وهو أسلوب يُسرّع وتيرة الأحداث بذكر موجز عمّا حدث، وكان لجوء السارد إلى تقنية التلخيص مناسبًا للمتلقي الصغير أكثر من لجوئه إلى تقنية القفز(٢٦).

٢- العقدة:

وهي مشكلة تبرز في مجرى القصة، وتحتاج إلى حلّ، وبحُسْن سبكها يثير القاصُّ رغبة القرّاء في تتبّعها والتفكير في حلول مناسبة، وفي هذا المثال بدأ الشيخ يسرد الخبر إلى أن وصل إلى صنع الطبَّاخ ما أمر به الملك، وتركه الإناء بلا غطاء،

(٢٥) يعرّف التلخيص أنّه تقنية يلجأ إليها السارد ليسرّع وتيرة الأحداث، وهو من السرعات السردية الأساسية، ويحدث عندما يتفق نصّ سردي قصير نسبيًّا وزمن مرويّ طويل نسبيًّا، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٢٦) القفز - ويُسمّى أيضًا الحذف - من السرعات المعيارية للسرد، ويكون عند عدم وجود كلمات أو جمل مع مواقف وأحداث تكون قد وقعت في القصة، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ٥٥-٥٦.

وهذا يشعر بقرب حدوث شيء، ثم تزداد الأمور سوءًا، ويتدرج التأزّم حتى لا يشعر القارئ بالملل، إذ تضع الأفعى سُمًّا في القِدْر، ويأتي الملك بعد رحلة صيد شاقة جائعًا، فيطلب الطعام الذي أمر به، فيقدَّم إليه، وهنا تحاول الطفلة الخرساء أن تخبره فتخفق، ويحاول الكلب بنباحه أن يخبره أيضًا، فلا يُؤبه له، ويكرر نباحه، فيصرفونه رغبًا ثم رهبًا، والتوتر يزداد وتبلغ القصة ذروتها عندما يمد الملك يده إلى القدر المسمومة ليأكل منها، وصار قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

فالعقدة وُفِّيت حقّها الفنّي، فعُقِدت شيئًا فشيئًا، حتّى وصلت إلى درجة مشكلة، ثمّ حُلّت(٢٧).

٣- الحل:

يقفز الكلب بسرعة كبيرة إلى وسط المائدة، ويشرب من اللبن، فيسقط ميتًا من فوره، وسط تعجب الملك من فعله ووفائه، وهنا تعيد الطفلة الخرساء ما أرادته بإشارتها فيفهمون مرادها، ويُعْلي الملك شأن الوفاء بتكريم المرء صاحبَه، وذلك بحمله بنفسه ودفنه بيديه، وهذه النهاية لم تستغرق مساحة طويلة في الحكاية، وقد أعقبت أحداثًا سابقة، وآذنت بحالة من الاستقرار، والمتلقي ينتظرها(٢٨)؛ لذلك فإنّ الإطالة فيها والإسهاب في دقائقها مظنّة تهلهل الحكاية،

(٢٧) الأسلوب التعليمي في كليلة ودمنة: محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٠، ص٩٦.

(٢٨) قاموس السرديات، مرجع سابق، ص ٥٨.

فما كان يشدّ المتلقّي بات معروفًا، وليس من الطبيعي الاستغراق في تفصيلات لا تهمّه، ولاسيّما بعدما صار التوتّر خفيفًا والهدف واضحًا(٢٩).

إنّ هذه الحكاية تُمثّل أنموذجًا لما يُمكن تقديمه إلى المتلقّي الطفل في عصرنا، ونظائرها في التراث العربي كثير، وهي تُحاكي قصة الطفل اليوم من جوانب عدّة؛ من حيث طولها والحركة التي فيها، والتشويق الذي يسيطر عليها؛ ليثير رغبة الطفل في انتظار تحقّق مقولة: (وماذا بعد ذلك؟)، ومن حيث موضوعها الذي شارك في بطولته فيه الحيوان برمْزَيْه الجيّد والسّيّء، ولمشاركة الحيوان فيما يُقدّم إلى الأطفال لها أثر إيجابيّ وجاذب.

تحدو الباحث رغبة في بعث حكايات كثيرة في التراث العربي الأصيل، لم تجد طريقها إلى النور حتّى الآن، وليس منبع هذه الرغبة إحياء التراث القديم لمزيّة قِدَمِه فحسب، وإنّما لقيمتها وغِناها وأثرها، وهذه الحكايات مبثوثة في كتب التراث الأدبية وغيرها؛ ككتب التراجم والسير والتاريخ والرقائق، وهي – أي الحكايات– على درجات في مناسبتها لطفل اليوم، فمن حكاية تحتاج إلى تغيير غير يسير قبل تقديمها له، إلى حكاية لا تحتاج إلى تغيير كبير، كالحكاية التي وقف عندها هذا البحث، وكيفما كان الأمر في تقديم الحكايات التراثية اليوم فمن الأهمية بمكان تقديمها بوعي، وهو أمر لا غنى عنه.

---

(٢٩) يعرّف الهدف بأنّه السبب الذي من أجله تُروى القصة، والموضوع الأساسي الذي تهدف إليه، ينظر: قاموس السرديات، مرجع سابق، ص١٥٠.

المصادر والمراجع

١- **أخبارالأذكياء**: أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٠.
٢- **أدب الأطفال**: د.عبد الرزاق جعفر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٩.
٣- **أدب الأطفال**، فلسفته، فنونه، وسائطه: د.هادي نعمان الهيتي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٨.
٤- **الأسلوب التعليمي في كليلة ودمنة**: محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٠.
٥- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط .١، ١٩٩٢.
٦- **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**: د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣، ٢٠٠٠.
٧- **التراث في رؤية عصرية**: د.محمد حسن عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.
٨- **التراث والحداثة**، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١.
٩- **ثقافة الطفل العربي**: د. سمر روحي الفيصل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧.
١٠- جماليات القصة الحكائية للأطفال في سورية: محمد قرانيا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩.
١١- **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
١٢- **الطفل العربي والأدب الشعبي**: عبد التواب يوسف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢.
١٣- **الطفل وأدب الأطفال**: د. هدى قناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤.
١٤- **الطفل وعالمه الأدبي**: د.عبد الرؤوف أبو السعد، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٤.
١٥- **في القصة وفنّيتها**، مفاهيم وقراءات: د.عبد المجيد زراقط، مركز الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٠.
١٦- **قاموس السرديات**: جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣.
١٧- **كتب الأطفال في الدول العربية والنامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
١٨- **النص الأدبي للأطفال**: د. سعد أبو الرضا، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥.

المجلات:

١- **الفيصل**، الرياض، ع٢٢٩، ١٩٩٥.
٢- **الموقف الأدبي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٩٥، ١٩٧٩.